قصة قصيرة

قناعة

خنساء اسكندر *

صديقتي (قناعة) صبيّة هادئة جميلة، تسكن في منزل فقير قديم محاط بالأزهار والأشجار.. كل ما في روحها حلو ولطيف.. طاهرة نقية كالثلج.. مبتسمة كالربيع.. تعيش كبقية أقرانها من الفتيات المعوزات بالصبر والثبات، وجميع أعمالها مقرونة بالرضا والفضيلة.. تخيط الأثواب لقاء أجر زهيد.. تصلّي في سكينة الليل.. وتردد دائمًا : يا رب أعطنا خبزنا كفاف يومنا، فأعطاها الله الخبز الكفاف.. ووهبها الحكمة والعقل، وسكب في قلبها النور، فمن يستطيع أن يغمره بالظلام ؟ وزرع فيه بذور الإيمان فتقول : كيف أنزعها وأطرحها على الصخر لتذريها الرياح ؟

جارتي (ضياع) فتاة شريرة.. تحتضنها الظلمة، سجينة شهواتها، لا تسمع سوى صوتها، ولا تُصغي إلا إلى ميولها نحو المظاهر التي تعمي البصر والبصيرة.. تنظر من سطح منزلها المتداعي إلى القصور الجميلة الفاخرة، حاسدة أهلها لوفرة مأكلهم وحرير ثيابهم.

قادها بؤسها إلى هذه القصور.. إلا انها لم تَرَ سعادة ولا مالاً.. بل مصائب ومتاعب.. لصوصًا.. سرّاقًا يستترون بظلام الليل.. ويأكلون خبز الفقراء، وكادت أن تهبط إلى الحضيض وترتدي ثوب الإثم، فأصابها السقام وأخذت تذوب كالشمع وتضمحل.. وكانت تصبو إلى الموت ليحررها من ذلّها وضعفها.

ففي يوم من أيامها السوداء، كانت جالسة في ظلمة اليأس والأحزان متوجّعة، إذ أحسّت كأن قمرًا قد طلع من وراء السحب، وسكب أشعته المضيئة في سماء

(*) خنساء اسكندر : خريجة كلية الآداب / قسم الفلسفة.

نفســها.. فتحركــت روحهــا في داخلها.. فانتفضت مذعورة، تلــوم نفسها قائلة بحســرة : أيّ شــيء جعلني شــريرة ؟ لماذا ســاعدت الشر على نفســي ؟ لماذا خالفت مشــيئة الله ؟ فأحــنت رأســها ووضعت يديها على وجهها خجِلــة من ذاتها وأجهشت بالبكاء.. وصرخت : يا رب إسمع نداء نفســي المنهارة.. حررنــي من عبودية خطايــاي.. جدد قِــواي.. جدد إيمــاني.. ووقفت تحاسب نفسها أمام محكمة ضميرها وأخذت تصلّــي وتتضرع.. وهربت من هذه القصور بعد أن اكتشــفت خفايا ســاكنيها وأسرار معيشــتهم، قاصدة جارتها (قناعة) وترامت على صدرها تذرف دمــوع الأسى والندم، وترفع عينيها إلى السماء وتقول : سامحني يا رب، لقد نَسَــتْ نفســي.. أريد أن أموت، لأن تعاستي لا يشفيها ســوى الموت. فاحتضنتها (قناعــة) وقالت لها : بل أريدك ان تعيشي من جديد لتُحرري نفسك من أدرانها، وتتبدل شراستك بالوداعة وطيشك بالحكمة.. فالقلب يســتمد النور من الظلمة. لا.. لا تذرفي دموع اليأس، ها هو الفجر قد لاح.. فحزنك اليوم قد انقلب فرحًا. وراحــت تحــدثها : عندما يشرق النور في أعماقنا نعرف أن يسوع معنا. فصرخت (ضياع) قــائلة : لقد دعاني يسوع إلى النهوض، وألقى ســلامه في قلبي، وأوقد شــعلة الإيمان فيه كأننــي خروف وجد راعيه. إنّ ذراعيه ضمّتا قلبي وعانقتا روحي.

وهبّت (قناعة) بفرح تناديها : تعالي إلي.. تعالي يا صديقتي، ضعي يدك بيدي فاسمك اليوم (حيــاة) وقادتها إلى الكنيســة.. فعندما ترنمت الأجــراس معلنة بدء الصلاة، نظرت (قناعــة) إلى صديقتها (حيــاة) فوجدت المدامع تتلألأ في عينيها، وشعاع الإيمان يكلل رأسها وهي تشارك الجميع فرحًا.